

## أسئلة الفرنكفونية

### □ الآداب

لقي الملف الذي نشرته الآداب في العدد الماضي، وعنوانه «أفئدة الفرنكفونية»، ترحيباً شديداً من معظم قرائه: وقد يعود هذا الترحيب إلى أن المجلة كانت أول منبر (وربما الوحيد أيضاً) الذي كسّر في سنة الاحتفال بالخمسة الفونكفونية في بيروت جو «الصفويين» الذي يُدفع ببعض الناطقين بالفرنسية إلى الاستغلاء على المفكرين إليها، وببعض أصحاب عقدة النقص إزاء الحضارة العربية إلى الانتهاز. وقد حاول الملف السابق أن يكشف الانتعاش التي تستشر بها الفرنكفونية (كولها برفع شعارتي «صوار الضمائر» و«التهدد أو التفرغ الثقافي») لترويج المصالح الاقتصادية والبضائع الثقافية الفرنسية، على ما أجمع ثلاثة كتب من بلجيكا ولبنان والولايات المتحدة وفضحت «أرقام الآداب».

وقد دفعنا ذلك الترحيب إلى توسيع ملف الفرنكفونية (ولاسيما أننا مازلنا نحتمل بانشطتها في بيروت رغم تأجيل فتحها). وكانت محطتنا الآن في المغرب حيث تنتشر اللغة الفرنسية انتشاراً كبيراً في الإدارة والإعلام والتعليم رغم وجود 8٪ ينطقون بها فقط. بحسب حسن السميلى.

ولا حاجة في الختام إلى أن نؤكد أن هذا الملف سيبقى مفتوحاً لأن أسئلته وقضاياها شائكة وتحتمل وجهات نظر كثيرة.

بيروت

# الفرنكفونية واللغات الأدبية المحلية

□ عبد الكبير الخطيبي

ترجمة: فريد الزاهي

## الفرنسية بوصفها لغة حب

لكن لنبدأ من الحاضر بغير دراسة الماضي. لننطلق من الواقع العيني للفرنكفونية، ومن خلفيتها اللغوية المحلية. إن بلدان الفرنكفونية بكاملها تعيش ازدواجاً لغوياً من نوع خاص، هذا إذا لم تكن تعرف التعدد اللغوي. ففي كل مكان، هناك علامات شاهدة على التمازج والانقسام اللساني والرطانة، وعلى التراتبية بين اللغات المحلية.

وأنا، بوصفي كاتباً مغريبياً، لا يمكنني الصمت على واقعيتين مهمتين<sup>(١)</sup>.

- فالتكوين اللساني الفعلي في المغرب عربي وبربري، فرنسي وإسباني ولو بشكل هامشي، من جهة؛

- أما من جهة ثانية، فاللسان العربي مزدوج اللغة، إذ هو موزع بين تقليدين اثنين، يعود أحدهما إلى الذاكرة المكتوبة، فيما يعود الآخر إلى الحكاية الشفوية.

هذا هو ما يفسر احتواء المغرب أربعة أداب متوازية. أحد هذه الأداب مكتوبة بالعربية ويحيل على الأمة للعربية الإسلامية (وليس عليها وحدها) وجينالوجيتها النصية. والثاني يسري ويترحل بين الشعر الشعبي والخرافة، والغناء، والممارسة السحرية والصوفية، نظراً إلى كونه مصوغاً بالعربية الشفوية، ولم يحظ بالتقييد والكتابة. أما الأدب البربري، وهو الأدب الأعتق والأقدم، فهو بالرغم من كونه خضع للحجب، يترحل أيضاً بين فضاءات ثقافية مختلفة من الثقافة الشعبية. وأخيراً هناك الأدب الفرنسي اللغة، وهو ذو جينالوجيا مزدوجة. فليس من الصدفة أن يكون الكتاب المغاربيون أسرى السيرة الذاتية: ذلك أن الكتابة بلغة أجنبية تُشكل طريقة لتأسيس مشروعية فعل الكتابة.

منذ مئة يدور الحديث لا عن الأدب الفرنسي في وحدته، وإنما عن الآداب الفرنكفونية. وهذا الرأي يفترض وجوداً فعلياً للتعدد والاختلاف في اللغات الأدبية المحلية. إنها تعددية ذات منحى نشيط، نلك أنه لا يمكن وجود تجربة عالمية وثقافية شاملة من دون وجود أعمال تتشكل في حوض هذه اللغات المحلية، كلاً على حدة. ولنا الحق في طرح سؤال أول: هل هذه التسمية (اعني الآداب الفرنكفونية) مجردة تحصيل حاصل، أم أنها تعيش وضعية جديدة كلية وجوهريّة، وضعية قد تعرض للخطر لا الأدب الفرنسي وحده وإنما، وبصورة أكثر جذرية (اعني الجذور وتباين الجذور)، اللغة الفرنسية في مبدأ هويتها؟ إننا نأخذ هذا التعبير الأخير في بنيتها اللسانية والثقافية والسياسية (الوطنية والدولية)، من دون أن ننسى البعد الإعلامي الذي غدا دوره رأسخاً بشكل متزايد. لذا سيكون هذا المجموع الهيكلي، الذي يملك هذا الحد أو ذاك من الصلابة والانسجام، أحد محاور حديثنا.

بيدو في تحصيلنا الأولي أن تسمية «الآداب الفرنكفونية» تعني أن في تعددية اللغات المحلية نموذجاً مرجعياً هو الأدب الفرنسي في مبدأ هويته. إنه مبدأ سوف تلتحق وتلتصق به لغات محلية أخرى (مكتوبة وشفوية): اللهجة اللابونية والرومنديّة والكندية والمغربية، ولغة الكريول، من دون أن ننسى اللهجة البروطانية والكورسيكية، ومجموع الخاصيات اللغوية التي يضمها التراب الفرنسي. إنه هذه اللغات المحلية، مثلها في نلك مثل مجاز الشجرة، تزهر كما لو كانت قد استنبئت حول هذا النموذج المرجعي، أي حول مبدأ الهوية ذاك، الذي حدده الشاعر الفرنسي إيف بونفوا «باعتباره قاعدة تسعى نحو المطابقة بين الواقع والعقل، وتمكن من تفادي الشك في كون اللسان يعكس، وبدقة، وفي بنيتها نفسها، هذا المعقول intelligible»<sup>(١)</sup>.

١ - انظر L'improbable et autre essais (اللامحتمل وأبحاث أخرى) غاليما، ١٩٨٠، ص ٢٦٠.

٢ - انظر كتابنا Figures de l'étranger (صورة الأجنبي في الأدب الفرنسي) دونويل، ١٩٨٧، ص ١٠.

يُقترح دويوصي خلق توجه جديد للفرنكفونية  
يتماشى مع مبدأ احترام تنوع اللغات المحلية،  
ومبدأ عالمية متعدد الأقطاب

والتسجيل القيمي في الجمارك، وله كذلك حراسته وتخزينه  
وطابعه، هذا من دون أن ننسى الإصدارات الخاصة الهادفة إلى  
إحكام الطوق. فلكل عنصر في الحب محاسبه. وأن نحبه، ولو  
جزئياً، مسألة تتطلب التبصر والتفكير. وهو سر لا يخفى على  
أحد، قيامه أن يخضع للتدبير، إذ هو يمتلك اقتصاده الطوقسي  
المورث أباً عن جد.<sup>(1)</sup>

ونظراً لتملك الكاتب لغة حب مستقاة من تقليد أجنبي، فسوف  
يكون مضطراً إلى ممارسة الأزواج اللغوي. هكذا سوف يجد  
نفسه في بلده الأصلي يتكلم أحياناً لغة ويكتب بأخرى، في اليوم  
نفسه. فالأزواج اللغوي، سواء كان معيشياً بشكل نشيط أو  
بشكل يُنتج الغموض، يمكن الكاتب من كشف آخر؛ فهو يُترك في  
آخر المطاف أن لغته ليست لغة أمأ ولا لغة أبأ... وأنها، بوصفها  
تجربة كتابية، لغة غير شخصية. غير شخصية؟ نعم، وبمعنى  
مزدوج: فاللغة، من جهة، لا تنتمي لأحد؛ وهي، من جهة أخرى،  
تلقّد قناعها باعتبارها حيازة من قبل مجموعة أو بلد مهيم  
للخيرات الرمزية التي تتبادلها. إن الأشخاص تلك تشكل بيوتينا  
الكاتب، أو بالأحرى منفاه. أمأ على أرض الواقع فالأشياء تكون  
أكثر تعذراً على التناول. فالكاتب الذي نحاول هنا رسم صورة له  
يحب أنه قد تعرض، بشكل أو بآخر، لفقدان جزء من ذاته. إنه  
يحب نفسه هامشياً فيما نعتبره حساساً وشغوقاً بفرسا من غير  
أن يكون كذلك، ومن غير أن يكون مطابقاً لذاته أو فرنسياً حقاً. لذا  
فهو يتعرض لإنكار وتجاهل مصحوبين أحياناً بالحماية.

ما الذي نعانیه في الفرنكفونية؟ وبإية شكاوى يتعلق الأمر،  
خصوصاً إذا نحن انطلقنا من المعنى الأصلي للفعل الفرنسي  
doloir الذي اشتقت منه كلمة doléance: شكوى - عتاب؟

فالكاتب باللغة الفرنسية يقول في البدء: هذه هي ولادتي، وذلكم  
اسمي، وهذه أرضي، وذلكم قلبي الذي لا يُبيض إلا لكم. إنه  
ينظر إلى هويته وهوية شعبه عبر ما يُشبه إثنولوجيا أدبية. كلما  
توغل في هذا المسار اكتشف محاسن الغربية والاضطرابات التي  
تخلقها. فيمقدار ما تعيد اللغة الفرنسية بئينة اللغة الأم، ينصاع  
الكاتب للغة الغلوياية هذه. إنها غواية الكلمات وهي تنتظم فيما بينها  
في لغة حب تحافظ على قواعد اللباقة.

يحب ذلك الكاتب بمفارقة لغة الحب هذه (الآتية من مكان آخر  
ومن ذاكرة أخرى)، من غير أن يتمكن من تطويرها وبلورتها. ليس  
مطالباً بتغيير جينالوجيته النصية من خلال التماهي مع هذا  
الكاتب الفرنسي. أو ذلك؟ وفي الوقت نفسه، ليس هذا التعويض  
في صلب الذاكرة خطأ، ووعداً بحرية لا تُضاهى؟ اليس فعل  
القطيعة مكثراً من مكوثات كل فعل أدبي جديد؟ فقطه يُبقي  
صياغة الأشكال، وإبداع واستكشاف ما ظل صامتاً في لغة الحب  
هذه. ويأتي اليوم الذي يُحسن فيه هذا الكاتب أنه غداً متأكداً إلى  
حد ما من إمكاناته، ليمتلك اللغة الفرنسية. إنه يقوم بذلك على  
طريقته الخاصة، وغالباً بجموح عارم. هكذا يبدو أن شيئاً ما  
جديداً يُنبثق من أعماق ماضٍ إعجازي. إنه شيء جديد وغير قابل  
للتحديد. ربما كان ذلك هبة من لغة ما، هبة سوف تكشف لهذا  
الكاتب النزق أن كل لغة خاضعة لقوانين تجارية. «لكن ما الذي  
يتفاوض الكاتب بصدده مع رفيقته في الحب؟ أهو جسدها، أم  
روحها، أم نفسها؟ الحب، كما البنك، مسألة كتابة وترجمة للقيم  
التبادلية؛ فلحبه اقتصاده أيضاً من تمويل واستدانة وتسديد  
وتخفيض وعجز وصرافة. وله كذلك حقوقه المكتسبة في العقار  
التجاري، وحق التملك المؤلم، وحق امتلاك الأسهم، وحق المتعة

١ - انظر Nouveaux discours sur l'universalité de la langue française (خطابات جديدة حول عالمية اللغة الفرنسية)، غاليمار ١٩٨٨.

## الفرنكفونية واللغات الأدبية المحلية

### عن القومية والعالمية في الأدب

عادة ما نقول إن وطن الكاتب هو للغة. فهل يوجد إذن، في ما وراء تعدد اللغات المحلية للفرنكفونية، وطن أدبي، أو بالأحرى وطن مشترك trans-nation يكون القلب النابض للفرنكفونية؟

لقد فُتّم تييري نوبوصي Th. de Beauce، بوصفه كاتباً ووزيراً في الحكومة الفرنسية، جواباً ممكناً عن هذا التساؤل. ففي كتاب عنيف، يطلّ نوبوصي الفرنكفونية باعتبارها لساناً عالمياً بقوله: «نظراً لدعوى العالمية التي تتمتع بها اللغة الفرنسية، بوصفها اللغة الأقوى، يتحدّم عليها إعطاء المدّل في المقاومة، وتحديد الاستراتيجيات المشتركة الجبيرة بحماية التعددية. فحين يقال إن اللغة الفرنسية تعني فرنسا، يتم الخلط بين مصالح الشعب والدولة ومصالح تعبير لسانيّ معين. والحال أن مناخ اللغة الفرنسية ليس مناخ فرنسا قط، مع أن فرنسا تقوم فيه بدور خاص وفريد». وذلك هو المنحى الذي سقاذه مداخلنا بدورها.

يتنامى انتشار اللغة الفرنسية في العالم بوتيرة أقل من وتيرة تعميم اللغة الانجلواميركية الذي يساير التجارة والتقنية. يقترح الكاتب، إزاء تقنية الصداقة المهيمنة هذه، خلق توجه جديد للفرنكفونية، وذلك تبعاً لاستراتيجية غير دفاعية هذه المرة، وإنما مرنة ونشطة ومتماشية مع مبدأ مزدوج: مبدأ احترام تنوع اللغات المحلية، ومبدأ عالمية متعدّد ومتعدّد الاقطاب. هكذا ينتهي وهم المركز، والمركز العرقي، الذي يتحكّم في الحضارة الفرنسية، في اندماجها وتوحدتها حول موقع جغرافي معين ودولة وإيديولوجيا محدّتين: إن فرنسا هذه يتّعتها المؤلف بالاستبدادية.

ولكنّ لكي يغدو مبدأ الفرنكفونية هذا فاعلاً، يتطلّب الأمر وجود قواعد لعبة بين الأطراف المعنية تكون شفافة بما فيه الكفاية، ويتطلّب أيضاً وجود قوانين ضيافة في اللغة التي تتقاسمها تلك الأطراف وتقسّم داخلها. إنّها ضيافة من غير محاباة، وبحث عن هوية تكون

بدورها في حالة صيرورة. فإذا ما نحن قبلنا بفكرة هوية لا استقرار لها في الماضي، فإنّ بإمكاننا التوصل إلى تصوّر أكثر صواباً لهوية في حالة صيرورة. وأنا أعني هوية تكون إرثاً من الأثار والكلمات والتقاليد، وتتحول مع الزمن المصدّد لحياتنا بعضنا مع بعض ومع الآخرين. ذلك أن الإنسان الذي لا يحافظ على حياته، بفضل ماضيه المشرق وحده، يُشبه ميتاً محنطاً، أي ميتاً قد لا يكون عاش أبداً.

هكذا يتوضّح أن الهوية لا تتحدّد من خلال بنية أبدية، بل هي - حسب رأينا - محكومة بعلائق متقاطعة بين الزمن والفضاء والثقافة التي تهيكّل حياة مجموعة بشرية أو عرقية أو حياة مجتمع ما. إنّها ترجمة لحركة الوجود ومرورته وتكيفه مع الأحداث، ومع طاقته الخاصة في التجدّد. تعني «الضيافة» هنا إنصافاً للآخر باعتبارها آخر، ومن ثمّ الإنصات له من أجل التمكن من استقباله في فرادته. إنّها كلمة أتية من مكان آخر بعيد، ومراس لهويتي الخاصة في تبلورها، ومراس لطموحي الخاص إلى العالمية، كيفما كنت: مسلحاً بالقوة أم محروماً منها، امدعاً باستراتيجية قويّة أم محروماً منها.

يتعلق الأمر فعلاً بمبدأ لتعدد اللغات المحلية، لكنّ لماذا؟ كيف يكون ذلك التعدّد ثراءً لغويّاً لا فقراً في الوقائع؛ لناخذ لغة الكريول نموذجاً. إنّ ما يمنح هذه اللغة قيمتها هو، بالتعبير الشائع، نكهتها المحلية ونبرتها الغنائية والراقصة ومرتلانها الغرائبية، كما هو الشأن بعض الشيء مع «السكات» scat في موسيقى الجاز، باعتبار أن فعل scatter يعني تلبية مقاطع غنائية عبر محاكاة الآلات الموسيقية.

لكنّنا نعلم أن جيمس جويس، وهو من بين الكتاب المرموقين في هذا القرن، قد ابتدع عدّة لغات محلية ومن بينها لغة «السكات» الأدبية في روايته يقظة فينيغان Finnegan's Wake. إنّ ما نقصده هنا هو أن لغة الكريول عبارة عن رطانة Pidgin أي هي مزيج من اللغات؛ وحين يأخذ عمل أدبي ما على عاتقه هذا التمازج فإنه يغدو مختبّراً للإبداع الأدبي. فالكريول ليس قضية محلية

اللغة الفرنسية تكبت قوتها الشعرية  
كما كبتت منذ خمسة قرون تنوع لغاتها  
المحلية

نموذجًا ومقياس هوية بالنسبة للفرنسيين: إنه نموذج فرنسا حول مركزية البلد والدولة واللغة والدين. ولقد تم إقرار هذه الهوية من الذات إلى الذات من خلال أنظمة من القواعد الشكلية التي ماتزال تتحكم فيها، وكأنها الهيكل السامي للغة الفرنسية. غير أن اللغة الكلاسيكية، التي غدت ذات منزع إنساني منذ عصر الأنوار، تعرضت لأولى التقلبات مع الثورة الشعرية التي عاشتها فرنسا منذ بداية القرن التاسع عشر. فقد استطاع بولير، باستيعابه للغة الكلاسيكية ولأشكالها في أكثر مظاهرها الإنشائية الشهوية، أن يقود الأدب الفرنسي نحو حدائق لا مثيل لها. وحقق تلك اللغة بشكل مزدوج. وربما كان ذلك آخر شاعر عنري في فرنسا، متظاهراً - ويا للحيلة الكبرى! - بأنه شاعر كلاسيكي منقطع. أما أن يكون اسم ملارمي، بعد بولير، علامة على تجربة نموذجية، فهو شيء لا يفاجئ أحداً. إنه من دون شك المنظر والممارس «للشعر الخالص»، غير أننا ننسى أنه كان يملك وعياً حاداً ومولماً جداً بنهاية الكتاب الشامل le Livre. لقد كان يملك وعياً دقيقاً بالوجوه المتعددة للثقافة. ففي «رمية نرد» تكون القصيدة عبارة عن لعبة فضائية بين قراءات عديدة مترابطة على مستويات مختلفة. كان ملارمي يرغب في كتابة قصيدة ذات صياغة كالجغرافية وطباعية، قصيدة تكون هندسة للروح وسينوغرافية رؤياً وفكرًا بانحاً للفراغ. إنه الأدب باعتباره اقتساماً متدرجاً للمضي، والمتم بحيث يكون الفضاء (التشكيل البصري واللوني للكلمات) مجال تجل للإيقاع. أما عن رامبو، شاعر الهجرة بامتياز، فأنا نترك الكلمة لانطوان رايبو A. Raybaud الذي يحدد شعره باعتبار ما يمكن تسميته انشقاقاً في الحكاية. فلما كانت الحكاية تشتمل على بعض الأسس، فإن كل اشتغال النص ينصب بالضبط على جره إلى الانشقاق.

إن هذا الانشقاق يشكل في نظره إمكانية استخراج وتحريك طاقة جديدة في النص... وفي هذا السياق يلزمنا فهم كلمة barbare كما يستخدمها رامبو، لا بمعنى الهجينة التي يتم الحديث دائماً

فقط، وإنما يشكل الإمكان الأصيل لكل لغة كي تتغذى من اللغات الأخرى وتثري بفضلها، وذلك من غير السقوط في الهذر أو العودة إلى الصرخات للهمجية. إن جويس، وهو الإيرلندي الأصل، لم يخش الدع بالإنجليزية، وهي اللغة الكونية، إلى حدود العي.

ومع ذلك، فإن النقد الميثروبوليتاني (الحواسري) يحتفل بجويس ويتجاهل الكريول. فالأمر يتعلق بوزنن ومكيازين. ينسى هذا النقد أن الكتابة هي ترك بصمات الصوت والعاطفة على رسوم الكلمات؛ وذلك هو تصورنا للادب، إذ التمازج الأول للكتابة موزع بين الصوت والمكاتب. إن كل لغة تُفَن قواعدها التعبيرية، غير أن السنن يذوي في حضرة الإيقاع.

نحن نتحدث عن الضيافة في اللغة، مع أن الواقع محدد، حسب منطق التاريخ، من قبل التراتبية وهيمنة لغاتٍ على أخرى، وكذلك عبر تعدد اللغات المتساوقة والمتباينة. وهو ما يؤدي إلى نفي اللغات وهلاكها وتشهيت اللغات المحلية، وإلى العي، وإلى كتابة بعضها والصمت المحبط للبعض الآخر. إن كل هذه المكابدات تشكل أيضاً جزءاً من الفرنكفونية.

يعاني الفرنسيون التأخر الذي تعيشه لغتهم، بالمقارنة مع التعبير العالمي باللغة الأنطو اميركية. هذا في الوقت الذي يشكو فيه الفرنكفونيون من وضعهم معتبرين أنفسهم موضع تجاهل متجذر من قبل الميثروبول. لقد غدت اللغة الأنطو اميركية اللغة المشتركة العامة في جميع المجالات، الصناعية والتقنية والسياسية والديبلوماسية والثقافية والإعلامية... وقد تسرعت هذه الوتيرة لأن اللغة أصبحت وسيلة لتطوير الإعلاميات، وشفرة عديّة وتناظرية، أي تقنية إعادة إنتاج للزمن بوصفه ذاكرة اصطناعية. أما الكتاب، بوتقة للتراث المكتوب، فقد أضاع موقعه الاستراتيجي في مجال المعرفة.

ويلزمه من الآن أن يكثفي بدوره كعنصر ومحطة للتواصل الإعلامي. لكن نعد إلى اللغة الفرنسية التي حظيت منذ العصر الكلاسيكي باستمرار رائع أكيد. فاللغة الكلاسيكية لاتزال إلى يومنا هذا

الفرنكفونية مشروعٌ واسعٌ ومعقدٌ وطموحٌ، وهي بالنسبة إلى البعض شيءٌ طوباويٌّ. وبإمكاننا التساؤلُ بالفعل عما إذا كان اتباعها قد منّحو أنفسهم الوسائلَ الماديةَ والثقافيةَ لتمكينها من قواعد صلبة. أفلا يوجد بين الشمال والجنوب لاتوازنٌ بيدهيُ جداً؟ ليس هذا اللاتوازنُ موزعاً بين احتكار البعض وفقير البعض الآخر؟ وللمهدي المنجرة الحقّ في التساؤل: «هل تشكّل الفرنكفونية وسيلةً للعلاقات الدولية؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو الجديد فيها؟»<sup>(٣)</sup>

يجيب المنجرة بالسلب، واضعاً اليدَ على المعطيات الواقعية: كالعديد المحدود للناطقين بالفرنسية (١.٦ ملايين نسمة)، وضعف الوزن الاقتصادي للعالم الفرنكفوني، ولاتوازن الناتج القومي الخام بين كندا وفرنسا من جهة (٨٢٪) والبلدان الإفريقية من جهة ثانية (٥،٨٪).

كثيرة هي العوائق التي تشهد على وضعيه جدّ غامضة موروثه عن تاريخ استعماريّ طويل، ونتاجة عن تفكير لا يفتأ يتزايد حدةً. أين نحن الآن؟ ما هو حال الفرنكفونية بوصفها محوراً ثقافياً واستراتيجيةً دوليةً؟ إننا لانزال في فجر التساؤل عن التقسيمات الجديدة بين اللغات، وعن سرعة التقنية وأثار التدويل déterritorialisation.

الدار البيضاء

عبد الكبير الخطيبي

من كبار كتّاب المغرب الأقصى. من كتبه الحب الثنائي اللغة، والذاكرة الموشومة

عنها، وإنّما في المعنى المرجح في نهاية القرن التاسع عشر، أي تهديم النظام القائم، وتشغيل حركة طاقة معينة. إنّ الهمجيين هم، بهذا المعنى، الدمّ الجديد للذين يأتون ويدمرون روما. وهو من ثم محاولة أو، بالأحرى، تحقيق نظام جديد يكون محملاً بممكّنات جديدة<sup>(١)</sup>

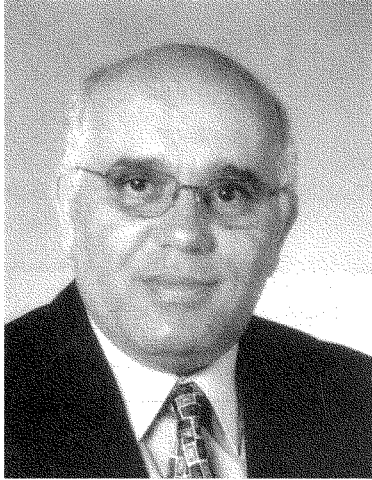
لقد أتينا على ذكر لحظات تخلخل عاشتها اللغة الكلاسيكية، ونحن نفكر في أنّ هذا التخلخل الذي استمرّ - وبطريقة متباينة - حتى القرن العشرين لا يزال فاعلاً سواء في فرنسا أو خارج حدودها، وكذلك في لغات أدبية محلية هي في طور التكوّن. لكنّ قد يقول قائل: عمّ تتحدث؟ من يقرأ الشعر الآن في فرنسا؟ إذ الشعراء هامشيون الأدب الفرنسي. ونحن نعايش المفارقة التالية: فاللغة الفرنسية تكبّت قوتها الشعرية كما كبّت منذ خمسة قرون تنوع لغاتها المحلية. غير أنّها في الوقت نفسه لم تعمل بما فيه الكفاية على التحول إلى لغة نمطية standard كي تعمل على تنشيط عالميتها الأدبية، سواء في العالم الفرنكفوني أو في بلدان أخرى.

تشكّل فرنسا بلداً أوروبياً ومتوسطياً وفرنكفونياً في الآن نفسه. وتلك هي العناصر الثلاثة المكوّنة لهويّتها. لهذا السبب يعتقد الآن دوكو A. Decaux، الوزير والأديب، أنّ الهوية المتبلورة لأوروبا تكمن في ممارسة التعدّد اللغوي<sup>(٢)</sup> باعتبار أنّ هذه الممارسة ستكون في صالح التوازن بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. هكذا يدافع دوكو عن تعليم لغتين، وعن ازدواج لغويّ يسمّى ازدواج «الحوار» كمثل الألمانية في شرق فرنسا. إنّها طريقة لخلق أماكن مرور وتبادل، عوض تعويق التواصلات بين الناس.

١ - انظر Imaginaires de l'autre (متخيّلات الآخر) لراماطان، باريس ١٩٨٩.

٢ - انظر مقاله «أوروبا وتحديّ اللغات»، جريدة لوموند، ١٤ سبتمبر ١٩٨٩.

٣ - «المغرب العربي والفرنكفونية»، مجلة Economica، باريس ١٩٨٨.



## حوار مع حسن الصميلي حول الفرنكفونية

أجراه: عبد الحق لبيض

حسن الصميلي □

ما يؤكّد هذا التوجّه مبادراتنا العملية والعلمية التي تجسّدت في تأسيسنا - داخل اللجنة العربية - قسم الترجمة، ومن أولوياته تقريب مشارب الثقافات المختلفة فيما بينها. وهكذا قمنا بترجمة مؤلفات فرنسية وإنجليزية إلى اللغة العربية، أو العكس. وكان دورنا الأساسي في ذلك كله هو التعريف بصورة الحضارة العربية والإسلامية في الغرب، كي لا تظلّ هذه الصورة منقولة عبر المستشرق فقط، وإنما تكون منبثقة من مصنفات وضعها عربٌ ومسلمون عن طريق الترجمة.

الإ أنه بعد حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١، وقعت قطيعة بين «اللجنة العربية» و«الجمعية». وكنّت شخصياً قد جمّدت عضويتي في «اللجنة» إلى غاية ١٩٩٣، حين ظهرت محاولة جديدة لتفعيل عمل اللجنة، ودّعينا إلى اجتماع في مدينة بيروت سنة ١٩٩٣، وبداننا نشغل من جديد. إلا أن المستجد البارز هو ظهور تراجع في اتجاه «حوار الثقافات»، وظهر هناك تشدّد من بعض الفرنسيين والكيبكيين والبلجيكين في هذا الموضوع.

المؤسسة الثانية التي انتهيت إليها، كما ذكرت، هي «وكالة التعاون الثقافي والتقني»، وهي وكالة فرنكفونية حكومية، إذ إن الأعضاء المنتمين إليها يتولّون حكوماتهم. وكان المغرب عضواً ملاحظاً في هذه الوكالة. وللإشارة، فقد كان انتمائي إلى هذه المؤسسة الفرنكفونية بصفة شخصية، بوصفي خبيراً في الشؤون الإفريقية.

«حوار الثقافات» شعار ترفعه القمة الفرنكفونية القادمة التي يُرمَع عقدها في خريف ٢٠٠٢. وهذا يعني أن المؤسسة الفرنكفونية بدأت تعي دور التعددية الثقافية في إنماء عنصر التواصل بين أعضائها. فهل هذا التحول ناتج جزئياً عن نضالاتكم ونضالات أمثالكم السابقة؟ أم أنه وليد تحولات بنيوية في مسار المؤسسة الفرنكفونية ذاتها؟

المؤسسة الفرنكفونية، ولسنوات عديدة، كانت مؤسسة ثقافية في المقام الأول. والدليل على ذلك وجود الجهازين الثقافيّين اللذين

بدأت علاقته بالفرنكفونية منذ ١٩٨٣ حين انتميتم إلى مؤسستين فرنكفونيتين هامتين هما: «جمعية الجامعات الدولية الناطقة كلياً أو جزئياً باللغة الفرنسية»، و«وكالة التعاون الثقافي والتقني». كيف يُمكنكم تقويم هذه التجربة؟ بدأت علاقتي بالفرنكفونية، كما أشرت في سؤالك، منذ سنة ١٩٨٢، عندما شاركت في الجمع العام لـ «جمعية الجامعات الناطقة كلياً أو جزئياً بالفرنسية» مندوباً من قبل الجامعة المغربية. وكنّت لحظتها رئيساً لشعبة اللغة الفرنسية وأدائها في جامعة فاس، ثم انتُخبت في اجتماع لومي ضمن اللجنة العربية، إلى جانب العديد من الأعضاء من مختلف الدول العربية الناطقة كلياً أو جزئياً بالفرنسية.

ومن أهم مشاريع العمل التي اقترحتها في هذه اللجنة، بمعونة أعضاء من أميركا اللاتينية، مشروع حدث الجمعية على الاهتمام بمسألة «حوار الثقافات»، ومازلت أتذكّر الصراع المرير الذي خضناه مع بعض الأعضاء الفرنسيين والكيبكيين والبلجيكين الذين كانوا يعارضون توجهاتنا في الموضوع ويسعون بقوة إلى فرض رؤاهم. إلا أننا، رغم كل الصعاب والعراقيل، نجحنا في فرض الاتجاه الذي كنّا ندافع عنه. ومما ساعدنا على العمل ما رُصد من ميزات كانت تُصرف على الأعمال والأنشطة والبرامج التي كنّا نقوم بها داخل اللجنة العربية. وهكذا اقترحنا إنشاء معهد متنقل للسانيات، بل عقدنا دورات علمية باسمه في كل من تونس والمغرب والقاهرة وبمشق. وقد كانت هذه الدورات مناسبة علمية ثمينة أستطعنا فيها أن نجتمع لفيقاً من الأساتذة الباحثين والطلبة المتخصّصين في اللسانيات العربية ليتدارسوا قضايا اللغة والثقافة في الوطن العربي. كما أتاحت لنا هذه الدورات فرصة دعوة كبار الباحثين في اللسانيات والشأن اللغوي من فرنسا ومن أميركا ومن العالم العربي. وقد تحكّم في عملنا هذا مبدأ جوهري كان يقوم على أساس مسألة «حوار الثقافات» وتعزيز مكانة اللغة العربية أيضاً.

## حوار مع حسن الصميلي حول الفرنكفونية

والاقتصادية عن طريق رفع شعارتي التحدّد الثقافي وحوار الثقافات. فالفرنكفونية كانت وما تزال جهازاً لحماية مستقبل فرنسا الثقافي والسياسي، وهذا ما أكدّه الخبراء ممثّرين قوّة الهيمنة الأميركية المرتقبة آنذاك. فأميركا ظهرت وفتقدت أكبر مرشّح لقيادة العالم بدلاً من القويّين التقليديّين: فرنسا وإنجلترا. وكان هؤلاء الخبراء متيقّنين من أنّ هذه القوّة الجديدة ستكتسح العالم بلغتها وثقافتها، وهنا كانت المعضلة التي تولّجها القوّة الفرنسيّة المتراجعة. لذلك نشأت فكرة «الفرنكفونية» للدفاع عن اللّغة والثقافة الفرنسيّتين. بل إنّ المفكر الذي نظر لهذا المفهوم كان يقول إنّ اللّغة الفرنسيّة عندما تكون خارج فرنسا وبلجيكا والكيبيك تكون فقط لغة نخبة، والنخبة في تبدل مستمر ولا يُمكنها أن تُضمّن استمراريّة اللّغة. وأعطى مثلاً على ذلك روسيا التي كانت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتكلم الفرنسيّة؛ حتى إنّ اللّغة الفرنسيّة كانت هي لغة البلاد ولغة النخبة المسيطرة سياسياً واقتصادياً وثقافياً. لكنّ ما إنّ جاءت الثورة البولشيّة سنة ١٩١٧ حتى تمّ القضاء على اللّغة الفرنسيّة في الاتّحاد السوفييتي. وهكذا، فإذا استمرت اللّغة الفرنسيّة لغة نخبة، كما في العديد من البلدان الفرنكفونيّة ومنها المغرب، فإنّ مصيرها سيؤول إلى الزوال.

إنّ شعارتي «التحدّد الثقافي واللّغوي» و«حوار الثقافات» شعاران بدون دلالة في سياق السياسة الثقافيّة التي تنتهجها فرنسا بعميّة القطبين الآخرتين في المنظّمة الفرنكفونيّة: الكيبك وبلجيكا. إنّ الفرنكفونية هي أصلاً وسيلة مؤسّساتيّة لحاولة التوسّع من أجل التخلّص الفرنسي في أوصال المجتمع المدني لكافة الدول الفرنكفونيّة، وذلك من خلال خلق جمعيات وهيئات متعدّدة الاهتمامات والاختصاصات مثل «جمعية الصحفيين الفرنكفونيين» و«جمعية الجامعات الدوليّة الناطقة جزئياً أو كلياً بالفرنسيّة»، و«جمعية عمداء المدن الفرنكفونيّة». بل سعت المؤسّسة الفرنكفونيّة

نكروها من أنفأ. لكنّ التحولات الكبرى والمتصارعة التي عصفت بالعالم، فهككت الإمبراطوريّة السوفييتيّة وأطلقت مفهوم العولمة في فضاء التفكير والتعامل العالميّين ونصّبت الولايات المتحدة قائداً أوحده للعالم، غيرت أفق انشغالات الفرنكفونية وبعثتها إلى الاهتمام بالمعنى السياسي. فتحولت، نتيجة لذلك، إلى مؤسّسة سياسيّة ذات أهداف وغايات سياسيّة نفعيّة توظّف من أجلها كلّ اللوسائل الممكنة، وفقاً للمقتضيات الوضعيّة السياسيّة العالميّة. وهكذا، ابتداءً من قمة فرساي العام ١٩١٦، برز المنزغ السياسيّ توجّهها عامّاً وأساسياً في اهتمامات المؤسّسة الفرنكفونيّة. وبلغ هذا المنزغ أوجه في قمة جزيرة موريس عام ١٩٩٢، وذلك في الخطاب الذي ألقاه الرئيس فرانسوا ميتران أمام أكثر من سبعة وأربعين ممثّل دولة ناطقة كلياً أو جزئياً بالفرنسيّة، وذكر فيه بالدور الذي تلعبه المؤسّسة الفرنكفونيّة في تمثيل التعدديّة الثقافيّة واللّغويّة، وحدد بوضوح أهداف أميركا في فرض ثقافة أحاديّة عن طريق مبادئ العولمة وقوانين «الغات»، وأنهى خطابه الشهير هذا بطلب مساعدة الدول الفرنكفونيّة لفرنسا في دعمها التعدديّة الثقافيّة واللّغويّة وفي دعم نضالها من أجل استثناء الإنتاج الثقافيّ من قيود منظّمة التجارة العالميّة.

لا أخفيك أنّ الأمر بدا لي غريباً ساعتها، وكنت قد عبّرت عن ذلك في مقالة نشرتها وعقبّت فيها على خطاب ميتران، متساءلاً عن مضمون هذا الطلب الذي تقدّم به والمتعلّق بالاستثناء الثقافيّ من معاهدة منظّمة التجارة العالميّة. وقلت لحظتها: كيف يُمكننا أن نتفاعل مع هذا الطلب أو الاقتراح الصادر عن رئيس دولة لا تُعترم التعدديّة الثقافيّة واللّغويّة في علاقتها بمستعمراتها السابقة؟ وكيف تطالب فرنسا المجتمع الفرنكفونيّ بحماية التعدديّة الثقافيّة واللّغويّة، وهي الدولة التي تجنّد موارد طائلة من أجل مضاربة التعدديّة في الدول الفرنكفونيّة، بل وداخل فرنسا نفسها؟ وظلّصت في نهاية المقال إلى التأكيد على هدف فرنسا المبطن وراء هذه الحيلة، والذي تسعى من خلاله إلى خدمة أغراضها التجاريّة



كيف تطالب فرنسا المجتمع الفرنكفوني بحماية التعددية الثقافية واللغوية، وهي التي تحارب التعددية في الدول الفرنكفونية بل وداخل فرنسا نفسها؟

تُقصي من خلالها دور اللغات الوطنية، العربية والامازيغية. وهي بذلك في نظرنا نزعة استعمارية إمبريالية! فكان رد فعل الحضور إيجابياً جداً. ما معنى ذلك؟ معناه أن المثقفين والمفكرين الفرنسيين يبركون أكثر مما أن الفرنكفونية ذات مزج استعماري إمبريالي.

يُنبغي علينا في العالم العربي أن نتعامل بحذر شديد مع دعاوى الفرنكفونية، وأن نرى إلى مصالحتها، وأن نعتبر مصالحنا الجوهرية كامنة في تعزيز دور اللغة العربية بيننا كدول وكشعوب عربية، خصوصاً أننا لا نصابف أية مشاكل لغوية حين نلتقي التواصل فيما بيننا. إن لنا، نحن العرب، قوة لغوية قد لا تتحقق لسوانا بسهولة. فالأتحاد الأوروبي مثلاً، ورغم ما حققه من تقدم ومن وحدة، ما يزال يواجه بمعضلة اللغة. فكل دولة متشبثة بلغتها لا تحيد عنها، الأمر الذي يؤدي إلى صرف ميزانية ضخمة في إعداد أوراق العمل والاتفاقيات والتوصيات، لأن كل ما يقوم به الأتحاد الأوروبي لا بد أن يترجم إلى خمس عشرة لغة.

إن مستقبلنا قائم في مدى قدرتنا على خلق تكتلات إقليمية وجهوية وقومية تُبرز قيمة اللغة العربية ودور الثقافة العربية في ترسيخ شعار «حوار الثقافات» وفي تعزيز دور التعدد اللغوي والثقافي في بناء نظام عالمي متوازن وديمقراطي.

يبقى ما قلتموه عن المؤسسة الفرنكفونية خطاباً عاماً دارجاً في الأوساط السياسية والاقتصادية والثقافية. غير أنه قد يكون أكثر دقة وموضوعية إذا قدمتم للقاري أسباب مراهضتكم للفرنكفونية اليوم بعد أن كنتم واحداً من أعضائها الفاعلين؟

أسباب مراهضتي اليوم للفرنكفونية متصلة بتطور المؤسسة ذاتها. فقد دخلت إلى هذه المؤسسة من بوابة الجامعة، مؤمناً في البدء أنها مؤسسة للتعاون الثقافي والفكري بين الجامعات المنتمة إلى الفرنكفونية. كان هدفنا انفتاح الجامعة المغربية على محيطها

إلى إحداث دورة رياضية فرنكفونية. ومع ذلك ظهر لأقطاب الفرنكفونية، وعلى رأسهم فرنسا، في قمة ١٩٩٣ أن هذه المحاولات غير كافية. فتم الاتفاق على تحويل المؤسسة الفرنكفونية إلى مؤسسة سياسية، فجيء بأمين علم له وجة سياسي بارز بولياً وهو بطرس غالي ليترسخ بذلك التوجه السياسي للمنظمة الفرنكفونية والمتمثل في توسيع رقعة الهيمنة السياسية والاقتصادية لفرنسا عن طريق الهيمنة اللغوية والثقافية.

فأين تظهر لك علامات «حوار الثقافات» الذي من أسسه نبذ الهيمنة وقسح المجال لتفاعل الثقافات فيما بينها، بعيداً عن لغة الاحتواء والهيمنة والتوجيه المولج؟ بل ما بالنا نذهب بعيداً في افتراض الأسئلة والمقاربات، ونحن عندما كنا داخل مؤسسات الفرنكفونية ندافع عن حوار الثقافات وعن اللغة العربية وثقافتها بالتحديد كنا نواجه بمقاومة شديدة بلغت في كثير من الأحيان حد القول الصريح من لدن مسؤولين فرنسيين وبلجيكيين وكبيكيين: أنتم يا عرب لستم معنيين في المؤسسات الفرنكفونية بالدفاع عن اللغة العربية وثقافتها. لكم السعودية ودول الخليج ندعم لغتكم وثقافتكم. أنتم هنا مدعوون للانفتاح على اللغة الفرنسية والإفادة منها. وكنا نرد عليهم قائلين: ليس لدينا مانع من الانفتاح بواسطة اللغة الفرنسية إذا كانت تُخدم مصالحنا الوطنية والقومية، أما إذا كانت الغاية أن نكون هنا لخدمة أهداف فرنسا وغاياتها فنحن لسنا مستعدين لذلك.

ويبدو لي من خلال تجربتي الخاصة أن المسار الذي أتبعته المؤسسة الفرنكفونية ذو مزج رجعي يدركه المفكرون والمثقفون الفرنسيون قبلنا. فقد حضرت لقاءً في باريس داخل مدرج في جامعة السوربون تمحور حول قضية الفرنكفونية، وجاء متدخل من كيبك يدافع عن الفرنسية كقوة للمقاومة وكسبيل للتخلص من جبروت الثقافة الأنكلوفونية الأميركية. فرددت عليه قائلاً: إن موقفكم من الثقافة الأميركية هو موقفنا نحن في المغرب العربي من الثقافة الفرنكفونية. فنحن نشعر أن ثمة هيمنة للغة الفرنسية

## حوار مع حسن الصميلي حول الفرنكفونية

الأخيرة حين فهمت الكيبك أنها قد تستفيد اقتصادياً من وجود اللغة الفرنسية في بعض البلدان؛ وهذا ما يؤكده توافق شركات كندية على مناطق النفوذ الفرنسي مثل شركة بيل - كندا في المغرب التي استفادت من تغلغل الثقافة الفرنسية في هذا البلد.

كل هذا جعلني أدرك أن شعار «حوار الثقافات» الذي تحمله المؤسسة الفرنكفونية قد تراجع حالياً وصار مجرد خدعة لأن الهدف الأساس وراء هذا الشعار هو تكريس حضور الفرنسية وتوسيع الهيمنة الفرنسية من أجل أغراض اقتصادية وسياسية.

ما هي وضعية الفرنكفونية داخل المغرب؟

اعتقد أن السياسة أو اللامسياسة المتبعة في المغرب جعلت اللغة الفرنسية تنمو بطريقة فوضوية ورجعية ولايموقراطية. وما نلاحظه أن هناك مفارقة كبيرة جداً. فإذا قمنا بإحصاء بقيق ومضبوط للناطقين باللغة الفرنسية في المغرب لن نجد سوى ٨ ٪، ودخل هذه النسبة نغتر على تفاوت كبير في طريقة استعمال اللغة: إذ يُدرج داخل هذه النسبة ذلك الشخص الذي لا يعرف من اللغة الفرنسية إلا كلمات معدودة من قبيل Bonjour و Bonsoir وMerci، وذلك المثقف الذي لا يعرف لغة سوى الفرنسية أداة للتواصل. وبين النموذجين تَحضر سلسلة من الاستعمالات المتفاوتة للفرنسية.

السؤال الذي يُطرح بهذا الصدد هو: كيف تُقبل هذا الغزو الفاحش للغة الفرنسية في الإدارة والتعليم ووسائل الإعلام واللوحات الإشهارية، مجرد وجود نسبة ٨ ٪ من المغاربة الناطقين باللغة الفرنسية؟ إن وضعية كهذه تُفرض علينا إعادة التفكير في محصلة السياسة الوطنية بخصوص الوضعيات اللغوية في المغرب، وفي مقاييس التفاضل بين اللغات.

إلى جانب العضلة اللغوية التي نعيشها في المغرب جرّاء هيمنة اللغة الفرنسية نواجه بمشكلة ثقافية مستعصية تتمثل في فهمنا المفهوم

الدولي، واستفادتها التقنية من هذا الانفتاح. والجامعة المغربية كانت حاضرة في «جمعية الجامعات الدولية الناطقة كلياً أو جزئياً بالفرنسية» منذ الستينيات. وابتداءً من ١٩٨٢ بدأ تبلور وعينا في اللجنة العربية التابعة لهذه الجمعية في اتجاه ترسيخ مبدئي «حوار الثقافات»، و«التعدد الثقافي واللغوي» والعمل على صياغة هذين المبدئين من خلال إجراءات عملية. ومن أجل هذه الغاية كان حضور المغرب في اللجنة العربية حضوراً طبيعياً، وما يزال حاضراً إلى الآن داخل هيئاتها.

غير أن حضورني في هذه الجمعية مكّنتني من معرفة المؤسسة الفرنكفونية عن قرب. كما فحصت خطابات المحركين الأساسيين لهذه المؤسسة من خلال أصولها ومنابعها. وتوضّح لي أن العاملين الحقيقيين في المؤسسة الفرنكفونية هم فقط المنتمون إلى الدول الناطقة كلياً بالفرنسية، عنيت: فرنسا وبلجيكا والكيبك. فرنسا تعتقد، ولأسباب تاريخية وحضارية، أن حضورها الاقتصادي والسياسي رهن بالحضور الثقافي واللغوي. أما الكيبك فإن له مشاكل كثيرة مع الأخ الأنجلوفوني الأكبر، إذ إنها تبقى هي المنطقة الأفقر في دولة كندا، وتمثل اللغة الفرنسية هذا الاتجاه الفقير والمهمش فيها. فالناطق باللغة الفرنسية هو الفقير؛ وفي المقابل فإن الناطق باللغة الإنجليزية هو الأكثر غنى ورفقياً وتقدماً، وله علاقات طبيعية بأمريكا. وهكذا فإن وضعية الناطق بالفرنسية في الكيبك هي وضعية المقاوم الذي يناضل من أجل فرض شخصيته وفرض ثقافته وترسيخ جذوره الفرنسية. وأما بلجيكا فتعيش وضعا لغوياً صعباً يُمكن أن يُعصف بها كعولة، وانخراط الفرنكفونيين داخل بلجيكا في المؤسسة الفرنكفونية هو تعزيز عالمي للوجود والهوية.

هذه الاقطاب الثلاثة هي المحرك الأساسي للفرنكفونية، ويتنظمون داخلها تبعاً لمصالحهم. وقد عشنا ولاحظنا قوة الصراع بين فرنسا والكيبك، يُحرّك تضارب مصالح القطبين في العديد من اللحظات، وإن كانت حدة هذا الصراع قد تراجعت في السنوات

المطلوب منا (كمغاربة) الانسحاب من  
الفرنكفونية، أو على الأقل اتخاذ موقف موضوعي  
منها مثلما فعلت تونس

والواقع حالياً أن اللغة الفرنسية لم تعد تلبي متطلباتنا لا من حيث الانفتاح الحقيقي - إذ نحن منطلقون داخل الثقافة الفرنكفونية - ولا من حيث التنمية الشاملة التي نحن بحاجة إليها في هذه الظروف التاريخية. فالثقف أو رجل الأعمال المغربي عندما يتجاوز جبل طارق يجد نفسه أمام صعوبة التواصل مع الآخرين بسبب انغلاقه داخل الثقافة الفرنكفونية وجهله للغة الإنجليزية. وإمام تراجع الثقافة الفرنسية وتدهور الاقتصاد الفرنسي، نجد أنفسنا أمام ثقافة مغربية تواجه معضلات عديدة وأمام اقتصاد متخلف. وأخطو من كل هذا ما يشهده المجتمع من تغلغل اللغة الفرنسية. فاطفالنا، وبخاصة أطفال النخبة الصغيرة التي تتكلم في حياتها اليومية اللغة الفرنسية، يتعلمون الفرنسية باعتبارها لغة الأم في التعليم ما قبل الأولي، ويتكلمون في البيت اللغة الفرنسية وحدها. وهذا مسلسل خطير جداً يهدد مستقبل اللغات الوطنية. والمغرب، كدولة، يجب أن يحترم نفسه ويعطي الأولوية للغته الرسمية داخل مؤسساته السياسية والفكرية والاجتماعية، وأن يختار الانفتاح على اللغات بما يحقق مصالحه الوطنية الاستراتيجية. فالدولة لا يمكنها أن تكون متعددة اللغات، بل هي دوماً أحادية اللغة. وحين تختار، أو يفرض عليها، أن تكون مزدوجة اللغة فإن ذلك يضرب بكيانها السياسي ويلزمها تبعات خطيرة أهدأها التكلفة المالية، بحيث تكون جميع خطاباتها وقراراتها وأعمالها ومشاريعها بلغتين. وهذا ما هو واقع في مغرب اليوم ونخاف أن يستمر في المستقبل. المطلوب منا رهنأ الانسحاب من الفرنكفونية، أو على الأقل اتخاذ موقف موضوعي منها، وذلك من خلال إعادة النظر في الوضع الثقافي واللغوي داخل البلاد، وأن نحذني في ذلك حذو تونس التي استطاعت بجرأة وشجاعة أن تعلن موقفها الموضوعي من الفرنكفونية وأن ترفض أي ضغط خارجي. ونحن في المغرب لدينا القدرة على سن مثل هذه السياسة إذا نضجت المسيرة الديمقراطية وتطور الانفتاح السياسي داخل البلاد.

«الحدائق» وفي إصرارنا على ربطه بالسياق الفرنسي دون غيره من السياقات المتعددة له. ومن الضروري أن يكون لهذا الوعي بمسألة الحدائق وبتحديد هويتها تأثير في مستويات التنمية المجتمعية والسياسية والثقافية داخل المجتمع، كما داخل مواقع القرار فيه. والأدهى من ذلك أن هذا التوجُّه ليس اختياراً ذاتياً وإنما هو مفروض علينا من الخارج. فالفرنكفونية كمؤسسة سياسية تفرض علينا هذا الوضع وتضغط علينا في اتجاه التقوقع داخله. لتتأمل ما وقع في الجزائر عندما أعلنت رغبتها في تعميم سياسة التعريب: ألم تنظم مظاهرات في باريس ضد هذه السياسة؟ ألم تحارب وسائل الإعلام الفرنسية والمؤسسات والدوائر الرسمية الفرنسية هذه الإرادة بكل الوسائل غير الديمقراطية؟ فإين هي إرادة الشعوب في تقرير مصيرها الثقافي واللغوي والسياسي التي تكفلها القوانين والأعراف الدولية والمؤسسات الحقوقية الدولية؟ ليس هذا دليلاً على أن المؤسسة الفرنكفونية هي مؤسسة سياسية استعمارية إمبريالية؟ لقد كان الوضع اللغوي والثقافي الذي أعيشه في بلدي، والذي لاحظته في بعض دول المغرب العربي الأخرى، سبباً مباشراً في مناهضتي لفكرة الفرنكفونية وفي محاربة مؤسساتها.

أيعني ذلك أن الموقف من الفرنكفونية هو موقف سياسي إيديولوجي من اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية؟ بالقطع لا. إن تكويني المعرفي مُشكَّل بالأساس من الثقافة الفرنسية. وأنا أمارس حالياً التعليم الجامعي باللغة الفرنسية. ولا أُنكر إعجابي باللغة والثقافة الفرنسيين، مثل إعجابي باللغة والثقافة العربيين وباللغة والثقافة الإنجليزيين. وأحفظ إعجاباً بالعديد من الكتاب الكبار الفرنسيين الذين استفدت منهم كثيراً في حياتي المعرفية، مثل بلزاك وموبسان وسارتر وغيرهم. يجب ألا نخلط هنا بين الانفتاح على ثقافة معينة والانغلاق القسري داخل لغة محددة جراًء هيمنة أو نزعة استعمارية إمبريالية.

## حوار مع حسن الصميلي حول الفرنكفونية

المؤسسة الفرنكفونية من أجل مساندة بعض دول أوروبا الشرقية المحسوبة تاريخياً على الفرنكفونية مثل رومانيا؛ للوقائع تؤكد أن شيئاً لم تستطع الفرنكفونية، وعلى رأسها فرنسا، القيام به في هذا الشأن. فرومانيا تأخر دخولها إلى الاتحاد الأوروبي، وهذا يعني أن فرنسا ومؤسستها الفرنكفونية لا موقع مؤثراً لهما في الاتحاد الأوروبي نفسه. مثل آخر هو لبنان: ماذا استطاعت فرنسا والمؤسسة الفرنكفونية أن تقدمه للبنان في حربه الطائفية؟ وهل كان لها نورٌ في أية تسوية؟ العكس هو الذي حصل: فتسعة عشر عاماً من الحرب شهد فيها لبنان تطوراً لغوياً وثقافياً كبيراً خارج المؤسسة الفرنكفونية.

**أخيراً، كيف ترون مستقبل الفرنكفونية وأفاقها في المغرب؟**  
إذا كان هناك تطورٌ ديموقراطي في المغرب فلن يكون لفسادة الفرنكفونية. ذلك لأن هذا المسار لا بد أن يكون مصاحباً بحملة تعبوية مهمة لمحاربة الأمية قصد توعية المجتمع وتسييسه وتشجيع اللغات الوطنية. وكل ذلك سيكون لصالح اللغة الرسمية التي هي العربية. لكن هذا لا يعني أن اللغة الفرنسية ستندثر، ولا أحد يرغب في ذلك، وإنما ستحتل مكانتها وتلخذ حجماً طبيعياً داخل المجتمع إلى جانب لغات أخرى متعددة تتنافس معها لتحقيق مصالحنا الوطنية وتنفيذ غاياتنا في التنمية الحقيقية والشاملة.

**الدار البيضاء**

### حسن الصميلي

العميد السابق لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الدار البيضاء، وأحد الأسماء البارزة في الساحة الثقافية المغربية. يشغل بالبحث اللساني واللغوي، وله العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات المغربية والعربية والدولية. عضو سابق في «جمعية الجامعات الدولية الناطقة جزئياً أو كلياً باللغة الفرنسية»، وخبير دولي سابق في «وكالة التعاون الثقافي والتقني».

أمام غياب أي تكامل عربي شامل وقوي، وقسبل كل محاولات بناء اتحاد مغاربي عربي منسجم ومتلاحم، وإزاء استفحال خطر العولمة وتنامي التجمعات الدولية القوية، يبقى للتكامل الفرنكفوني بديلاً من لون أحلاهما مرٌّ إذ قد يفيد بعض دول المغرب العربي في إيجاد بعض التوازن في علاقاتها الدولية.

مرة أخرى أقول إن هذه مغالطة كبرى، لأن المؤسسة الفرنكفونية لا وزن لها على المستوى العالمي. ذلك أن الوزن العالمي الأكبر هو رهنًا للولايات المتحدة الأميركية، شئنا أم أبينا؛ بل إن وزنها هو أكبر من وزن الأمم المتحدة نفسها. ويمكننا أن نمثل في هذا الصدد بالعديد من الأمثلة السياسية والاقتصادية والثقافية الراهنة.

إن الرهان على التكامل الفرنكفوني هو رهان خاسر في نظري. فوجودنا داخل المؤسسة الفرنكفونية لن يفيدنا شيئاً، إن لم يكن قد أثر فينا سلبياً. فالمؤسسة للفرنكفونية لا تحتل موقعاً مقدماً في السياسة العالمية يسمح لها بالمشاركة في تنظيم العالم وفرض منظورها، وإلا فلماذا لا نسمع شيئاً عن تحركات المؤسسة الفرنكفونية في الحرب الدائرة اليوم على أرض أفغانستان؟ بل من يعرف موقف السيد بطرس غالي الأمين العام للمنظمة العالمية للفرنكفونية من التحولات المتسارعة في العالم ومن بؤرة الصراع المتوترة سواء في أفغانستان أو في الشرق الأوسط؟

**هذا الوضع نفسه تعيشه منظمة الكومنولث.**

الكومنولث مؤسسة تعرف حدودها وتهتم بالاقتصاد أكثر من أي شيء آخر. أمّا الفرنكفونية فإن لها طموحاً سياسياً كبيراً، مع أن هذا الطموح لا يناسب وضعها العالمي. وأقدم هنا مثلاً على محدودية تأثير الفرنكفونية في القرارات السياسية العالمية بمسألة دخول دول أوروبا الشرقية في الاتحاد الأوروبي، وهو الدخول الذي يخضع لاولويات ولترانبيبات: فهناك دولٌ ستلج بوابة الاتحاد الأوروبي، وأخرى ستنتظر خمس سنوات. فماذا كان تأثير